فـــريدة غـيـــوة*

فلسفة الثورة عند جان بول سارتر

- مفـهـــوم الفـلسفـة الثوريـــة عند سـارتر.
- المبادئ الأساسية التي تقوم عليها فلسفة الثورة.

أ) الـوعي والثـــورة.

ب) المـــادية و الثـــورة

- نتـائج الـثـورة
- نقـد و تـقـيـيـم

لفلسفة الثورية بطبيعتها فلسفة تتعرض لتحليل الظواهر بشكل حي ومتفاعل وجدلي، عبر استيعاب التناقضات الداخلية والخارجية ، الجزئية والكليّة لها ، فهـي أداة تقـوم مـن خلالها بتفسـير الواقع، وتحليله والكشف عن تناقضاته (1)بل إن هذه الفلسفة ترفض الواقع القائم ، لأنهـا تكشـف عن صراع مرير يدور بين السيد والعبد ، أو بين مضطهِد ومضطهَد.فهي ترمي إلى استرجاع الهويـة والوعي بالذات ، ورفض كـل ما من شـأنه أن يقيم تمـايزا بين البشر ؛ وبالتالي فإن الفلسفة الثوريـة تقوم لدحض الفلسفات السابقة ، التي أكدت على ضـرورة وجـود مثـل هـذه الإختلافـات ، ومنـه فهي تبقى على الأوضاع القائمة ، ولا ترمي إلى التغيير.

ومن بين الفلسفات التي ترفضها فلسفة الثورة فلسفة أفلاطـون المثاليـة الـتي نجدهـا تؤكـد على ضرورة بقاء التمايز بين الناس في القـدرات والمواهـب ، وبالتـالي الأعمـال الـتي يكونـون فيهـا مهيئين بطبيعتهم لأدائها (2) حيث نجده يقسم مدينتـه إلى طبقـات ثـلاث تـرتب ثـم تتمـايز طبقـا للقدرات والمؤهلات الطبيعيـة لأفرادها؛ وهي طبقة الحكام و الفلاسفة ؛ وطبقة المدافعين ؛ ثم طبقـة الصنّاع.وأسباب هذا التمايز بين الأفراد ، ومؤهلاتهم هي أسـباب أصلية ؛ لأن الآلهـة وضعـت في طينة بعضهم ذهبا لتمكنهم أن يكونوا حكاما ، ووضعت في جبلة مساعديهم فضـة ، وفي القـائمين بشؤون القوت وحاجات العيش وضعت نحاسا وحديدا. (3)

إن فلسفة أفلاطون قد تضمنت بعدا طبقيا متميّزا يكشف عن التمايز بين الأفراد ، فمدينته الفاضلة أو المثالية، هي مدينة قائمة على العنصر الطبقي. (4)

أما أرسطو فقد اعتبر أن الثورات الاجتماعية تعود إلى وجود الطبقات في المجتمع ، واعتبر أن توفر عامل الثروة أو انعدامه هو السبب الحقيقي والأول للثورات (5) فأرسطو قام بدراسة دور العامل الطبقي وأثره في الثورات والإنقلابات السياسية ، فحاز بذلك فضل السبق ، في تقديم دراسة ذات أبعاد طبقية عميقة الجذور و دقيقة التفاصيل ، واضحة المعالم.

وإذا انتقلنا إلى العصر الوسيط وجدنا الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» يتحدث عن التمايز بين الأفراد ، حيث تضم مدينته موجودات كثيرة تمتاز -على الرغم من كثرتها -بكونها متفاضلة ، يتراتب بعضها فوق بعض وتراتبها هذا يكون بأن «يقدم أولا أخسها ، ثم الأفضل فالأفضل إلى أن تنتهي إلى أفضلها (6) ، فالأفراد عند الفارابي هم بالضرورة متراتبون، متفضلون فيما بينهم ومتمايزون، بالتالي فإن موقعهم ضمن هذا السلم التراتبي وعلة هذا التمايز و التراتب ، هو ما فضل الله به بعض الخلق دون غيرهم من خصائص ، وعطاءات وإن لم يحددها بدقة كافية لتعدادها.

أما ابن خلدون فقد قام بتحطيم الأساس الذي استند إليه البعض في اعتبار أن الإنسان هو ما عليه بفعل جبلته الطبيعية ، وتركيبته الخلقية ، فوقف في الصف المضاد لأفلاطون وأرسطو والفارابي ، ماداموا قد اعتبروا أن الإنسان يكون ماهو بفعل طبيعته وما يصنعه الله فيه من معدن نفيس أو خسيس ، أو بما فضل به بعض الخلق دون غيرهم ، محققا بذلك طفرة نوعية متقدمة في آرائه قياسا بأولئك الفلاسفة ومناحيهم في تفسير أسباب الإختلاف بين الخلق ، حيث أرجعوها إلى علل ميتافيزيقية ، بينما ارجعها هو إلى علل إجتماعية موضوعية ؛ وهو يتسلسل في هذه الآراء حتى يبلغ النقطة التي يطرح فيها رأيه في تقسيم المجتمع إلى طبقات اعتمادا على العامل الإقتصادي (7) وقد ساعدت دراسة ابن خلدون على ظهور المادية التاريخية في العصر الحديث ، على يد انجلز وماركس ؛ لأن ابن خلدون قد جعل اختلاف أحوال البشر و طبيعة حياتهم أمرا تابعا لإختلاف أسلوبهم في الإنتاج ، سابقا ماركس وانجلز في ربط الحياة الإجتماعية بأسلوب الإنتاج.

فـــريدة غيـــوة*

فلسفة الثورة عند جان بول سارتر

- مفهـــوم الفـلسفـة الثوريـــة عند سـارتر.
- المبادئ الأساسية التي تقوم عليها فلسفة الثورة.
  - أ) الـوعي والثــورة.
  - ب) المـــادية و الثــورة
- نتـائج الثــورة
- نقـد و تقـيـيـم

لفلسفة الثورية بطبيعتها فلسفة تتعرض لتحليل الظواهر بشكل حي ومتفاعل وجدلي، عبر استيعاب التناقضات الداخلية والخارجية ، الجزئية والكليّة لها ، فهـي أداة تقـوم مـن خلالهـا بتفسير الواقع، وتحليله والكشف عن تناقضاته (1)بل إن هذه الفلسفة ترفض الواقع القائم ، لأنهـا تكشـف عن صراع مرير يدور بين السيد والعبد ، أو بين مضطهد ومضطهد.فهي ترمي إلى استرجاع الهويـة والوعي بالذات ، ورفض كـل ما من شأنه أن يقيم تمـايزا بين البشر ؛ وبالتالي فإن الفلسفة الثوريـة تقوم لدحض الفلسفات السابقة ، التي أكدت على ضـرورة وجـود مثـل هـذه الإختلافـات ، ومنـه فهي تبقى على الأوضاع القائمة ، ولا ترمي إلى التغيير.

ومن بين الفلسفات التي ترفضها فلسفة الثورة فلسفة أفلاطـون المثاليـة الـتي نجدهـا تؤكـد على ضرورة بقاء التمايز بين الناس في القـدرات والمواهـب ، وبالتـالي الأعمـال الـتي يكونـون فيهـا مهيئين بطبيعتهم لأدائها (2) حيث نجده يقسم مدينتـه إلى طبقـات ثـلاث تـترتب ثـم تمـايز طبقـا للقدرات والمؤهلات الطبيعيـة لأفرادها؛ وهي طبقة الحكام و الفلاسفة ؛ وطبقة المدافعين ؛ ثم طبقـة الصنّاع.وأسباب هذا التمايز بين الأفراد ، ومؤهلاتهم هي أسباب أصلية ؛ لأن الآلهة وضعـت في طينة بعضهم ذهبا لتمكنهم أن يكونوا حكاما ، ووضعت في جبلة مساعديهم فضـة ، وفي القـائمين بشؤون القوت وحاجات العيش وضعت نحاسا وحديدا. (3)

إن فلسفة أفلاطون قد تضمنت بعدا طبقيا متميّزا يكشف عن التمايز بين الأفراد ، فمدينته الفاضلة أو المثالية، هي مدينة قائمة على العنصر الطبقي. (4)

أما أرسطو فقد اعتبر أن الثورات الاجتماعية تعود إلى وجود الطبقات في المجتمع ، واعتبر أن توفر عامل الثروة أو انعدامه هو السبب الحقيقي والأول للثورات (5) فأرسطو قام بدراسة دور العامل الطبقي وأثره في الثورات والإنقلابات السياسية ، فحاز بذلك فضل السبق ، في تقديم دراسة ذات أبعاد طبقية عميقة الجذور و دقيقة التفاصيل ، واضحة المعالم.

وإذا انتقلنا إلى العصر الوسيط وجدنا الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» يتحدث عن التمايز بين الأفراد ، حيث تضم مدينته موجودات كثيرة تمتاز -على الرغم من كثرتها -بكونها متفاضلة ، يتراتب بعضها فوق بعض وتراتبها هذا يكون بأن «يقدم أولا أخسها ، ثم الأفضل فالأفضل إلى أن تنتهي إلى أفضلها (6) ، فالأفراد عند الفارابي هم بالضرورة متراتبون، متفضلون فيما بينهم ومتمايزون، بالتالي فإن موقعهم ضمن هذا السلم التراتبي وعلة هذا التمايز و التراتب ، هو ما فضل الله به بعض الخلق دون غيرهم من خصائص ، وعطاءات وإن لم يحددها بدقة كافية لتعدادها.

أما ابن خلدون فقد قام بتحطيم الأساس الذي استند إليه البعض في اعتبار أن الإنسان هو ما عليه بفعل جبلته الطبيعية ، وتركيبته الخلقية ، فوقف في الصف المضاد لأفلاطون وأرسطو والفارابي ، ماداموا قد اعتبروا أن الإنسان يكون ماهو بفعل طبيعته وما يصنعه الله فيه من معدن نفيس أو خسيس ، أو بما فضل به بعض الخلق دون غيرهم ، محققا بذلك طفرة نوعية متقدمة في آرائه قياسا بأولئك الفلاسفة ومناحيهم في تفسير أسباب الإختلاف بين الخلق ، حيث أرجعوها إلى علل ميتافيزيقية ، بينما ارجعها هو إلى علل إجتماعية موضوعية ؛ وهو يتسلسل في هذه الآراء حتى يبلغ النقطة التي يطرح فيها رأيه في تقسيم المجتمع إلى طبقات اعتمادا على العامل الإقتصادي (7) وقد ساعدت دراسة ابن خلدون على ظهور المادية التاريخية في العصر الحديث ، على يد انجلز وماركس ؛ لأن ابن خلدون قد جعل اختلاف أحوال البشر و طبيعة حياتهم أمرا تابعا لإختلاف أسلوبهم في الإنتاج ، سابقا ماركس وانجلز في ربط الحياة الإجتماعية بأسلوب الإنتاج.

و يمكن أن نقول إن ابن خلدون كان واحدا من بين الفلاسفة الذين مهّدوا للفلسفة الثورية ؛ لأنه حطّم فكرة « الحق الإلهي » وقام بدراسة الفوارق الطبقية دراسة علمية.

وقد ساير ماركس أفكار ابن خلدون عندما قام بدراسة المجتمعات البشرية دراسة علمية ، وانتهي إلى أن العامل الإقتصادي هو الأساس في نشوء الطبقات ، وعليه فالثورة ضرورية لإعادة توزيع الإنتاج توزيعا عادلا لتتحقق العدالة والمساواة بين الناس، وبذلك ينتقل المجتمع إلى النظام الإشتراكي الذي يوفرّ السعادة للجميع.وتكشف لنا المادية التاريخية عن الأطوار التي يمر بها المجتمع ابتداء من المجتمع المشاعي البدائي ، فالمجتمع العبودي ، ثم المجتمع الإقطاعي فالمجتمع الرأسمال ، وأخيرا المجتمع الإشتراكي ، الذي يمهدّ للمجتمع الشيوعي ؛ هذا الأخير الذي تنعدم فيه كل صورة من صور التمايز بين البشر.

إن الفلسفة المادية التي تزعمها ماركس هي فلسفة ثورية ترمي إلى إعادة بناء المجتمع وتغييره بطريقة علمية وقد نشأت فلسفة الثورة السارترية على أنقاض هذه الفلسفة ، مما يقودنا إلى البحث في مفهوم فلسفة الثورة عند سارتر و في موقفه من الفلسفة المادية التي تزعمها ماركس.

مفهوم الفلسفة الثورية عند سارتر

تعد فلسفة سارتر فلسفة ثورية ؛ لأنها ترى أن الإنسان غير راض عن حياته ، ومن ثم فهو مطالب بالتغيير والتجديد فسارتر يدعو إلى التمرد والعصيان والثورة على الأوضاع التي يعيشها الإنسان في مجتمعه ؛ لأنها تفرض عليه العيش في الإستسلام و لعبودية ، ومثل هذه الأوضاع تدفعه إلى طلب التغيير منها حتى يستطيع التكيف معها.

والثورة في نظر الفيلسوف الفرنسي هي «الفزع من الحياة» ، ومن ثم يعبّر عن نفسه بالفعل السياسي *L'action Politique* والإجتماعي ، ويتوسع بذلك لفلسفة جديدة في الإلتزام الذاتي ، وبهذا نراه يقف موقفا معاديا *لألبير كامي* "*Albert Camus*" الذي ينكر الثورات

الاجتماعية ، وثورات الفقراء والمحرومين ، فالثورة عند سارتر هي الشعلة التي يستنير بها الإنسان من أجل القضاء على الظلم والطغيان اللذين تتصف بهما هذه الحياة. (8)

وقد طرح سارتر مشكلة الفلسفة الثورية في كتابه «*المادية والثورة*» وفي هذا الكتاب نلاحظ تقاربا مع الفلسفة الماركسية حول الثورة ، حيث اهتم سارتر -على غرار ما فعل ماركس من قبله -بالإنسان الثوري (أو البروليتاري) ، وأعطاه مكانة تختلف عن غيره من الناس، فالثوري هو الإنسان الذي يعيش وضعا معينا داخل المجتمع ، وهو مضطهد من طرف الطبقة الحاكمة ، ونسميه ثوريا ، لأنه يهدف إلى تحطيم هذه الطبقة نهائيا ، وهو يختلف عن غيره من الناس ، لأنه إختار التمرّد والثورة.

والثوري -كما رسم ملامحه سارتر في كتابه «المادية والثورة» -هو العامل ، وصفته هذه تعرضه للاضطهاد. فهو يتميّز بصفتين أساسيتين ومتناقضتين : الأولى أنه منتج ، والثانية أنه مضطهد.فالثوري -في رأيه -هو من يتجاوز وضعه إلى وضع جديد ، إلى تكوين مجتمع جديد.ويحدثنا سارتر عن العمال الذين ثاروا في يونيو من سنة 1848 في مدينة «*ليون*» الفرنسية إنهم لم يكونوا ثوريين ؛ لأنهم قبلوا بأن يكونوا أجراء ، كما أنهم اعترفوا بحقوق الطبقة المالكة ، فكانوا يطالبون بزيادة أجورهم داخل نطاق أحوال لم يتجاوزوها (9) ، فالثوري المستسلم يبدو له المجتمع بناءا نهائيا ، أما الثوري الحقيقي فإنه يرى أنه لحظة من اللحظات التي يعيشها الكون ، وبالتالي فهو قابل للتغيير. فهو ينظر إلى المجتمع بهذه النظرة التاريخية ، ويجعل من نفسه أداة من أدوات التاريخ.

المبادئ الأساسية التي تقوم عليها فلسفة الثورة

أ) الوعي والثورة

اهتم جان بول سارتر في فلسفته الثورية "*بالوعي Conscience*" حيث يعتقد أن الثورة لا يمكن أن تنطلق دون وعي يسبقها ، ويصرح في إحدى مقالاته. "*مواقف Situations*" ، أن

كتاب "الوجود والعدم *L'être et Le néant*" يوضح لنا مختلف أشكال التعذيب ، والقهر التي يتعرّض لها الإنسان ؛ ومن خلال هذه الشهادة التي يدلي بها سارتر فإننا نجده يحاول إبراز فكرة "الإنتصار *Victoire*" ، أعني *انتصار الإنسانية على اللاإنسانية Victoire de L'humain sur L'hunimain* لأن الإنسان يستطيع بكل حرية أن يواجه العراقيل التي يصادفها في حياته اليومية.

فالإنسان -*المحكوم عليه بالحرية Condamné a etre libre* يستطيع -من خلال أبعاد جميع أشكال التعذيب والقهر التي تمارس ضده - إعطاء الفرصة للغير في " *الأمل L'espoir* "ورفع هذه المعاناة من حوله ، لا تخصه هو فحسب، وإنما تخص الإنسانية جمعاء (10) فسارتر في هذا الصدد يوسع من مفهوم الواجب الذي كان يرتبط بالفرد فقط ، في كتابه «الوجود والعدم» ، أما في كتابه. «الوجودية نزعة إنسانية» وكذلك في مقاله «مواقف» الذي يحمل عنوان «الإنتصار» فإنه يصبح «كانطيا» إلى أبعد الحدود ، لأن الوعي لم يعد مهتما بنفسه فقط ، وإنما أصبح شاملا ، يتوجه نحو الآخرين ، الذين يصبحون مسئولين عن كل ما يخصهم في الحياة.(11)

إن الخطوة الأولى التي تقود إلى الثورة هي الوعي ؛ لأن الإنسان -إذا كان لا يعي الظروف اللاإنسانية التي يعيش فيها -فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعي حقيقة «الإضطهاد» ؛ لأنه ينظر إليه على أساس أنه شيء طبيعي ، فهو متعلق بحياته ، ومن هنا ، فهو يتقبل كل الممارسات اللاإنسانية التي تمارس ضده سواء أكان ذلك من طرف الطبقة البورجوازية - إذا كان عاملا -أم من طرف المستعمرين الأجانب. فالإنسان في هذا الصدد ، يتعذب من غير أن يلتفت إلى هَذا العذاب ، أو يكترث به كثيرا. ويزداد عذابه كلما تحوّل إلى " ثوري *Revolutionnaire*" ، أي أنه يتحول إلى قوة تعمل على تجاوز مثل هذه الأوضاع عن طريق "مشروع *Projet*" معيّن يعمل على تغييرها، لأنه يكون قد أدرك أن حالته تتوقف على ذلك المشروع ، ومن ثم فهو مسئول عن وضعه ، وعن واقعه المعاش ، إذ أنه أصبح مطالبا بفهم الحالة التي يحياها ، ثم توضيحها، وأخيرا رفضها والتمرد عليها.(12)

ويحاول الثوري فهم المجتمع الذي يعيش فيه ، فيلاحظ أن التاريخ هو تاريخ الإنسان ، والتغيير الذي يريد استحداثه، هو مرحلة جوهرية تهدف إلى وضع يكون أحسن من الأول ، وبالتالي يكون التاريخ تقدم لأن الثوري يريد أن يعيش حياة أفضل من تلك التي كان يعيشها في السابق ، وأهم ما يطالب به الثوري، هو تحرير نفسه إذا كان عاملا ، ويكون ذلك ليس بإقامة علاقات مع الطبقة صاحبة الامتياز، بل بالعكس ، يقوم بإقامة علاقات مع العمال الآخرين ، وهو المثل أو النموذج الذي يجب أن تكون عليه علاقات البشر جميعا (13)

ومن هنا تكون فلسفة الثورة فلسفة عملية ، فهي بالتالي ليست تأملا في العالم -كما زعم هيجل وأفلاطون من قبله -كما أنها ليست متميزة عن العمل ، فهي متأصلة في الإتجاه الذي يرمي إليه الثوري ، لأن أية خطة لتغيير العالم ، لا يمكن أن تنفصل عن فهم هذا العالم وكشفه من وجهة نظر التغيير الذي يراد تحقيقه فيه (14)

إن هدف الثوري هو العمل على تحرير الناس، و المطالبة بالمساواة بينهم، ويتضح ذلك من خلال اللقاء الذي قام به سارتر مع "*بيير فيكتور Pierre Victor*" ، وقد تحدّث هذا الأخير عن العلاقة التي كانت تمارس بين العمال العرب ، وصاحب المؤسسة ، وقد أدت سوء المعاملة إلى الكشف عن الوعي ، حيث نجد أن أحد العمال ثار بكل حرية على هذه الأوضاع المأساوية ، التي كان يعيشها مع زملائه ، مما أدى إلى تضامنهم معه ، وقد كان من بينهم عمال فرنسيون.فاغتراب العمال *Alienation* أعني شعورهم بالعزلة و الغربة داخل المؤسسة التي ينتجون فيها -هو الذي يؤدي إلى التمرّد والثورة ، حيث يكون هدفهم استرجاع حقهم في الوجود ، فسارتر في هذا الصدد يريد تحطيم بعض الأفكار العنصرية التي يشنها أصحاب المؤسسات على العمال ؛ لأنها وليدة فكرهم البورجوازي و وليدة العنصرية.(15)

ب) المادية والثورة

جعل الفيلسوف الفرنسي الأفكار البورجوازية آفة من الآفات -كما سبق وأن ذكرنا-أنها تحاول باسم الشعارات، والأديان السماوية -أن تستحوذ على الضعفاء والمساكين ،

فتزيد من تعاستهم ومن فقرهم.من هذا نتساءل عن موقف سارتر من الفلسفة التي يجب على الثوري أن يعتنقها ، حتى يتمكن من مكافحة هذه الأفكار ويتجنب الانحراف ، الذي وقع فيه الكثير من الناس ، الذين عانوا الفقر والبؤس في مجتمعاتهم.

إن الفلسفة المادية –حسب ما يعتقد سارتر –رغم إحتوائها على بعض النقائص ، إلا أنها كفيلة بأن تقدم للإنسان تعليلا يمكنه من تحديها ، للقضاء على تعاسته في هذه الحياة، ويذكر في كتابه «المادية والثورة» أن أول فلسفة التجأت إلى هذه الفكرة «هي فلسفة *"أبيقور"* التي ترى أن مظاهر الحياة يمكن أن تفسر، انطلاقا من الأسباب والعلل ، مثلما ذهبت إليه الفلسفة المادية إلاّ أن *"أبيقور"* يمتاز عنها برؤيته إلى الإنسان، الذي يجعله يتحدى هذه العلل والأسباب ، من أجل القضاء على مخاوفه. وقد جعل من الموت حادثا عاديا ، فجردها من المظهر الأخلاقي عندما كان الناس يتوهمون وجود محاكم تحت الأرض ستحاكمهم على كل تصرفاتهم.«فأبيقور لم يبدّد الأشباح ، ولكنه جعل منها ظواهر فيزيائية، ولم يجرؤ على إلغاء الآلهة ، لكنه جعلها لا تمت لنا بصلة، ولا تخلق نفسها بنفسها ، بل هي مخلوقات مخالفة لنا ، يخلقها تراكم الذرات» (16) ومن هنا نتساءل : هل الأسطورة المادية ضرورية حقا لتغيير الأوضاع الإجتماعية؟.

اعتنق الثوري المذهب المادي لأنه المذهب الوحيد الذي يحرّره من الحالة الراهنة التي يعيش فيها ، على عكس المذهب المثالي الذي لا يقدم له الواقع كما هو ، بل يعمل على تجميل صورته من أجل الإبقاء على الأوضاع القائمة ، وعدم إحداث التغيير في الأشياء ، لذا نجد الثوري يعتنق المذهب الأول ؛ لأن المادية توفر له أشد التعبير إرضاء لمقتضاها ، طالما أنها تؤكد تسلط المادة على الفكرة تسلطا يمكن خرقه. فكل شيء في رأيه *"واقعه Fait "* ، وصراع قوى وفعل.ويصبح الفكر في هذه الحالة ظاهرة حقيقية في عالم يمكن وزنه وتقديره ، فالفكر ناتج عن المادة ، وهو يستهلك الطاقة ، وهو الشيء الذي يستدعي مقاومة حقيقية تتم عن طريق الفعل ، والعمل ، ومن ثم وجب على المرء أن يحيي هذه المقاومة في الواقع.

فالفلسفة المادية ، كما يرى سارتر ، قد جعلت الإنسان موضوعا من موضوعـات العـالم، وأنكرت جدل العقل، ولم تبق إلاّ على جدل الطبيعة الذي هو محاولة لتنظيم الوقائع ، وهذه المحاولة تريد للعالم أن ينكشف بذاته دون أن يكون للإنسان دور في ذلك ، لأن الإنسان هو ذات قد انتفى فيها ، وهو ما يطلق عليه سارتر المادية الجدلية «من الخارج » أو « المتعالية».

إن الماركسية المعاصرة –وهـي الـتي أسماهـا سـارتر «المدرسـية» تشـبيها لهـا بـدو جماطيـة العصور الوسطى –هي التي تصورت الإنسان في قلب الطبيعـة ، موضوعا من موضوعاتها ، يتطـور تحت أبصارهـا وفقـا لقوانـين الطبيعـة ، أي كماديـة خالصـة ، تحكمهـا القوانـين الكليـة للجـدل ، وموضوع الفكر هو الطبيعة على نحو ما هي عليه ، ودراسـة التـاريخ تخصيـص لـه ، مـن ثـم ينبغـي متابعة الحركة التي تولد الحياة، وتولـد الإنسـان ابتـداء مـن الصـور الأولى للحيـاة ، وتولـد التـاريخ البشري إبتداء من الجماعات البشرية الأولى هذا التصور في إعتقاد سارتر يمتاز بأنه يتجنب المشكلة؛ لأنه يقدم الجدل تقديما أوليا ، ودون تبرير ، بإعتباره قانونا أساسيا للطبيعة.«أنه يفرض الجدل كأمر خارجي ، أو كقانون مجرد وكلي للطبيعة ، وهكذا تستبعد الماركسية المعاصرة من العالم «الإضافة الغريبة عنه» التي ليست إلا الإنسـان المشـخص ، الحـي بعلاقاتـه البشـرية ، وأفكـاره الصحيحـة أو الباطلة ، ومقاصده الحقيقية ، وتقيم مكانه موضوعا مطلقا ، كأن الماركسـي المعـاصر يتخـذ وجهـة النظر الإلهية على الرغم من إنكاره لوجودا لله ويتأمل منها مشهد الإنسان كأحد موضوعاته. (17)

فالمادية ترى أن هناك سلسلة من العلل والأسباب التي تدفع بالإنسان إلى تغيير وضعه ، أو القيام بسـلوك معيّـن ، وهكـذا يبقـى سـلوك هـذا الأخـير –في نظـر سـارتر –مرتبطـا بهـذه العلـل والمسببات ، وهذه العملية تعني قتل الحرية الإنسـانية ، على الرغم من أن سـارتر لا ينفـي إحتمـال وجود تغيير في الوضع ، لكنه يعيب على المادية هذا التفسـير ؛ لأن هـذا السـلوك لا يجعـل الإنسـان يرتد إلى وضعه ليتفهمه ، ولا يستطيع هذا السلوك كذلك أن يفسر الوعي الطبقـي الثـوري ، كمـا يرى أن الديالكتيك الثوري يقوم فعلا بدوره حيث يتجاوز وضعا معينا ، غـير أن هـذا الديـالكتيك

يبقى في نظره ناقصا ؛ لأنــه اقتصر على وضع الحرية في الأشياء و ليس في الإنسـان، وهـو أمـر مرفوض عنده. (18)

وإذا كانت المادية تنطلق من الوجود المادي المحض لتغيير الوضع ، فإن سارتر يختلف معها في مسألة جوهرية ، وهـي الكوجيتـو الديكـارتي ، الـذي ينطلـق منـه ، فهـذا الأخير هـو الوسيلة الوحيدة التي من خلالها يستطيع الإنسان أن يبرز وجوده أمام غيره وقد أدى الكوجيتـو بسـارتر إلى أبعد من هذا ، أعني إلى الفعل : فالكوجيتو بدأ بوضوح الفكرة ، حيث يجعل التاريخ والثـورة جملة من الأفكار، والإيرادات، أما الوعي فهو الانطلاق الأول للثورة ؛ لأنه هو الذي يعطـي لهـا معنـى ، ومن هنا نستنتج أن الظروف المادية ليست هي الانطلاق الأول للثورة.

وهكذا يرى سارتر أن الفلسفة المادية تسلب الإنسان حريته ، فلا يفكر في الثورة ، وهـو الأمر نفسه الذي فعلته معه المثالية التي تلتقي مع المادية في هذه المسـألة على الرغـم مـن الاختـلاف الكبير الذي يطبع كلا من الفلسفيين ، فالمثالية تربط الإنسان بحقوق ، وقيم موجودة ، وتعميه عـن قدرته التي تستطيع أن تخلق له طريقه في الحياة.

أما الفلسفة الثورية ، فلا بد أن تكون فلسفة تجاوز ، يهتدي بها الثوري في حيـاته (19)

والعمل هو الذي يهيئ للإنسان السيطرة على الأشياء ، وتغيير الشـيء المـادي تغييرا لا حدود له ، وذلك بالتأثير فيه ، وفقا لبعض القواعد ، أي أن حتمية المـادة هـي الـتي تقـدم لـه أول صورة من صور حريته : فحتمية المادة هي التي تمكنه من تجاوز الوضع الراهن ، ورفضه والتمرّد عليه ، فالحركات التي يعيشها العامل -وهو يقوم بمهمته -هي حركات مادية ، حتميـة ، تعانقـه في عمق عبوديته حتى ينسى التغيير المفاجئ ، الذي قد يحدث في هذا النظام الطبيعي الذي فـرض عليه فرضا ، ولا يمكننا الحديث عن الحرية إلا في حالة تمكن العامل أو المضطهد من إبداع الوضع الجديد الذي سيصبح فيه ، وذاك من خلال تجاوز هذا النظـام ، وإتخاذ المسئولية كاملة إتجاهـه (20) ومـن هنا يكون الثوري خالقا لنظام جديد ، ولوجود جديد ، ومـادامت الأنظمـة الروحيـة تظـلله - فإنه من دون شك -سيختار النظام المادي.

وتعرض المادية على الثوري خدماتها من خلال الأسطورة التي تقدم أدق صورة لمجتمع تضيع فيه الحريات.ومن بين الفلاسفة الذين اهتموا «بالمادية» الفيلسوف الفرنسي "أوكست كونت" الذي عرفها بأنها المذهب الذي يحاول أن يفسر الأعلى بمفاهيم الأدنى ، ونحاول أن نطبق هذه المفاهيم على النظام الاجتماعي : فالطبقات الدنيا هي الطبقات العاملة ؛ لأنها في نظر البورجوازية غير مؤهلة لإنتاج الأيديولوجيات ، والثقافات ، والنظم ، وبالتالي فهي لا تصلح إلاّ لأن تكون خادمة للطبقة البورجوازية. (21)

ويرجع هذا التفسير إلى الفهم الطبيعي للكون ، الذي تؤمن به الطبقات العليا ، والتفسير من «تحت» هو التفسير الذي يأخذ به -على عكس ذلك -الفرد المضطهد ، لأنه التفسير الذي يجعل منه العنصر الذي يقوم عليه كل المجتمع ؛ فإذا كان الأعلى ليس إلاّ صدورا عن الأدنى ، فإن الطبقة المتميزة ، ليست إلاّ ظاهرة فرعية ، إذا رفض المضطهدون خدمتها ، مرضت ، وماتت ، فهي لو اعتمدت على نفسها فحسب ، فإنها -من دون شك -تصبح لا تساوي شيئا (22).

ومن هنا يعتقد جان بول سارتر أن هذا التفسير -الذي اعتنقته المادية -هو تفسير صحي وماعلينا -كما يقول -إلاّ أن نوسع من هذه النظرية : فتفسير الفكر بالمادة هو تفسير يبرّر الموقف الثوري ، وهذا التفسير يخلق التمرد الثوري ضد مضطهديه وهنا تقدم له المادية أكثر مما يطلبه لأن الثوري لا يصر على أن يكون شيئا ، بل على أن يسيطر على الأشياء ، وهو في الحقيقة قد حقق لنفسه -وفي عمله -تذوقا له الحق فيه إتجاه الحرية ، هذه الأخيرة التي يراها منعكسة في عمله ، وفي تفاعله مع الأشياء ، هي بعيدة عن الحرية المجرّدة ، كحرية الفكر التي تادى بها الرواقيون ، فهي تتضح من خلال موقف معيّن ، قد ألقي العامل فيه إلقاء ، بحكم حادثه ميلاده ، وفرضته عليه نزوة سيده أو مصلحته ؛ فالحرية تظهر في الفعل الذي يقوم به العامل ، حيث يلاحظ خلال قيامه بعمله أنه يتجاوز الحالة الراهنة التي توجد عليها المادة ، من خلال أي مشروع يهدف إلى تشكيلها على هذا النحو أو ذاك ، وأن هذا المشروع -لكونه متماشيا مع توجيه الوسائل نحو الغايات -فإنه ينجح - فعلا -في تشكيل هذه المادة على النحو الذي يريدها له ، وهو إذ يكتشف علاقة العلة بالمعلول ،

فإنه يكتشفها ليس بالخضوع ، والإستسلام لها. لكن عن طريق الفعل نفسه ، الذي يتجاوز الحالة المادية ، وهكذا تنكشف علاقة العلّة بالمعلول من خلال جدوى « *فعلAction*» يتمثل في الشروع وتحقيقه في الوقت ذاته ، فإذا كانت طواعية الكون ومقاومته هما اللتان تصوران له ثبات السلاسل السببية مصورة حريته في الوقت نفسه -فإن ذلك يسبب عدم تميّز حريته عن إستعمال السلاسل السببية من أجل غاية ، تفرض هذه الحرية نفسها من ثم «فإن الحتمية في العمل لا تكشف عن الحرية من حيث هي قانون مجرّد للطبيعة ، بل من حيث هي مشروع إنساني يبرز، ويضيء في وسط تفاعل الحوادث تفاعلا حتميا غير محدود في جزء منه». (23.)

ومن هنا فإن الاعتماد الكلي على النظرية المادية وتطبيقها في المجال العملي ، فيه تشويه لمفهوم الثورة ؛ من حيث أن هذا الأخير يقوم أساسا على قدرة الثوري (وهو إنسان يمتاز بالحرية) على تجاوز الأوضاع القائمة ، أعني أنه قادر على تحويل الحتمية إلى «مشروع وجود».

يعتقد كذلك سارتر أن المادية تنظر إلى السيد كشيء من«*الأشياء Objet*» مثلما تنظر إلى العبد ، والسيد لا يعرف شيئا عن ذلك ، لأنه يعيش في حضن عقائده ، وحقوقه ، وثقافته وهي أمور تفرض نفسها عليه ومن هنا يرى سارتر أن المادية تخفي عن الثوري حريته لأنه -في مثل هذه الأحوال -لا تترك الفرصة للعبد اكتشاف حريته ، وقدرته على تغيير العالم ، وتغيير الأوضاع التي يعيشها. (24)

وينتقد سارتر الفلسفة الماركسية التي قامت بتعليم الحرية للإنسان حيث يقول في هذا الصدد: «إن تعليم الحرية للإنسان هي خيانة ؛ لأنه لن يكون في حاجة إلى ذلك ، إلى أن يصير حرا» (25). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإنسان حر منذ ولادته ، فالحتمية بالتالي تأتي بعد الحرية ، أي أنها لاحقة عليه.

والثوري في رأي سارتر -لا يثور من أجل الثورة ؛ ولكنه يتجاوزها ، فهو يريد تنظيم المجتمع تنظيما عقليا ، بنزعة إنسانية جديدة ، فحريته تتخذ الحرية هدفا لها ، والإشتراكية هي وسيلة تحقيق

عالم الحرية ، وهي هدف ثوري ، لكن الإشتراكية التي يتحدث عنها سارتر ليست هي الإشتراكية التي تتحدث عنها المادية ، فالاشتراكية التي تقوم على أساس نظرية مادية هي في اعتقاده اشتراكية متناقضة. (26)

وسارتر بإعتباره فيلسوف النزعة الإنسانية ، يجعل الإشتراكية جزء لا يتجزأ من هذه النزعة وهذا ما جعله يختلف مع التفسير المادي للإشتراكية ، يقول في هذا المجال : «فالاشتراكية نزعة إنسانية ، بينما المادية تجعلنا لا نستطيع تصورها». (27)

كما ينفر سارتر من الفلسفة المثالية ، التي ترى أن التغيرات ، التي ظهرت في العالم تعود -أساسا -إلى الأفكار ، فهي كلها من نتاجها ، فهذا التصور للواقع -في رأي الثوري -هو أمر خطأ لا يعدو أن يكون مضللا -مثله مثل الفلسفة المادية -فالموت ، والبطالة ، والجوع ، والإضطهاد ، وغيرها ليست أفكارا ، ولكنها وقائع معاشه فالثوري يدرك أن الثورة ليست خليطا من الأفكار ، وإنما هي جهد إنساني مبذول ، فهو يفكر تفكيرا صارما -على خلاف المثالي الذي يكتفي بالتفكير -بينما يحارب الثوري الأشياء بالعمل ، وليس بالفكر (28) مثل هذا الإعتقاد نجده عند هيجل الذي شيد فلسفته بكاملها على الفكرة ، فسارتر يرفض مثل هذا الاعتقاد لأن حرية الإنسان عنده لا تتمثل في التفكير حول هذه الوقائع المعاشة فحسب ، وإنما في مقاومتها ، والقضاء عليها ، والتضحية من أجل حياة أفضل. (29)

وهكذا يعتقد سارتر أن المادة -إذا كانت خير الوسائل للعمل فحقيقتها زائلة : فهي صادقة بالنسبة للطبقة العاملة لأنها صالحة لها ومادام التقدم الإجتماعي لن يتحقق إلاّ عن طريق الطبقة العاملة فالمادية أصدق من المثالية التي خدمت مصالح البورجوازية مدّة من الزمان ، في وقت كانت فيه الطبقة البورجوازية طبقة صاعدة تكوّن نفسها ويرى سارتر «أن الطبقة البورجوازية تعوق تطور الوجود المادي للمجتمع ، لكن عندما تمتص البروليتارية البورجوازية بصفة نهائية - محققة بذلك تذويب الطبقات ، وإقامة المجتمع اللاطبقي -فسوف تظهر مهام جديدة ، تدفع أفكارا أو نظريات اجتماعية جديدة للظهور ». يقول في هذا الصدد : «وما دام المجتمع ثمرة إمتصـــاص

الطبقات ذات الإمتيازات ، وقوامه العمل ، أي التأثير في المادة ، وما دام هذا المجتمع نفسه خاضعا لقوانين الحتمية ، فإن الدائرة تنغلق وينغلق العالم على نفسه». (30)

وخلاصة ما تقدم ذكره هو أن المادية رغم أنها تؤثر على الحياة الإنسانية ، وتريد التغيير إلاّ أنها تبقي مجرّد فكرة ميتافيزيقية ، حيث تفتقر إلى الأساس المتين الذي تقوم عليه فلسفة الثورة ألا وهو الحرية فهذه الأخيرة سابقة على الأوضاع المادية ، التي يعيشها الإنسان ، ومنه يمكن أن نقول إن الحرية سابقة عن المادة و بالتالي فهي تعمل على توجيهها عن طريق المشروع ، فالمادية قد أهملت المشروع الإنساني ، الذي يأتي سابقا على المادة ؛ وعليه فإن الفلسفة الثورية لا تعدو أن تكون إلاّ مشروع الثوري نحو تجاوز المادة والسيطرة عليها.

نتائج الثورة

كما سبق وأن ذكرنا ، فإن فلسفة الثورة لها مبادئ أساسية ، حيث يتم من خلالها الوصول إلى نتيجة الثورة التي تتمثل -كما يعتقد جان بول سارتر -في بناء النظام العادل القائم أساسا على الإشتراكية. إلا أننا نذكر أن النظام الإشتراكي الذي تحققه هذه الثورة يقف في الوجه المناقض لما ذهبت إليه المادية الجدلية ، التي اتخذها الماركسيون كأساس لقيام الثورة العمالية ، والتي وضعت الحرية العمالية في قفص لا مخرج منه ؛ بالإضافة إلى ذلك فإنها تفرض حتمية نجاح الثورة ، من خلال إعتماد العامل على العمال وعلى النضال.ويرى سارتر أن الماركسية تنظر إلى الإنسانية على أنها لا أمل لها إلا في «الاشتراكية» ، وبذلك تطرح فكرة خضوع الأفراد للحتمية التاريخية ، كما أنها تعتقد أن عدم الإلتزام بالنظام الإشتراكي يؤدي بالإنسان إلى البربرية ، فالإشتراكية التي يطالب بها الثوري -حسب سارتر -ليست هي تلك الإشتراكية التي تنتظرنا ، وإنما هي التي يراها الثوري مناسبة لعصره. ويرى الفيلسوف الوجودي بأن هناك إشتراكيات كثيرة، وبربريات كثيرة،

وهناك ربما اشتراكية بربرية ، والطبقة العمالية ، الثورية ، لا تطالب سوى بأن يضع الإنسان لنفسه قانونه الخاص به. (31) ويعني به جان بـول سـارتر أن يختـار الإنسـان النظـام الـذي يتماشـى وفـق حريته.

فالاشتراكية التي يبحث عنها الثوري هي التي يحصل عليها ببطء وبصعوبة ، وهذا ما يؤكده لنا التاريخ. فالإشتراكية حسب سارتر.ليست قائمة هكذا في نهاية الطريق -كما اعتقد ماركس وانجلز -وإنما هي مشروع إنساني ، وستكون ما يصنعه البشر. وهو يبدو في الجدية التي يواجه بها الثوري عمله.فهو بالتالي مسئول عن إقامة جمهوريته الإشتراكية عموما ، بل يشعر أيضا أنه مسئول عن الطبيعة الخاصة لهذه الاشتراكية ، والتي تتمثل في توحيد الجماعات العنصرية ، وتوحيد الطبقات ويرى سارتر أن الاشتراكية هي الوحدة بين كل البشر ، ورفض الحقوق والواجبات، والتمرد عليها ، وفرض الحرية، فهي تعني عنده تحمل عبء المصير كله بحرية. فالإشتراكية هي قضية إنسانية. (32)

ونخلص من هذا كله أن الإشتراكية هي نتيجة من نتائج الثورة ، لكن الإشتراكية التي يتحدث عنها سارتر هي مسألة مصيرية متعلقة بإختيار الأفراد لها ، فهي مشروع إنساني حر غير مقيّد بعلل وأسباب المادية الجادلية ، فهي تكشف عن خلق وإبداع الإنسان الجديد في ظل نظام جديد فالإشتراكية السارترية بهذا المعنى تحوي في طياتها بعدا إنسانيا وأخلاقيا وهو البعد الذي تناسته الماركسية وحاربته.

نقد وتقييم

لسارتر وجه مشرف ، وجانب إيجابي يتمثل في كونه مفكرا حرا ، متعاطفا مع الطبقات الكادحة ، وفيلسوفا كبيرا ، ناصر الشعوب المناضلة ؛ لقد وقف إلى جانب هذه الشعوب في نضالها ضد الإستعمار والإمبريالية، كما أن هناك وجها مشرفا في فلسفته الثورية التي تتجة إتجاها نبيلا ؛

لأنها ترمي إلى رفع المعاناة على الفقراء والمظلومين ، إلاّ أنها مع ذلك ، لا تخلو من بعض النقائص التي يتحتم علينا طرحها ومناقشتها ، ونستطيع أن نوجزها في العناصر التالية :

-إن الثوري يناضل ، ويكافح ، ويضحي بكل ما لديه من أجل تحقيق أمله الذي يتمثل في انتصار هذه الثورة ، وانتصاره على مضطهديه ، غير أن سارتر يجعل هذه القضية مقترنة بالصدفة وبالفشل لأن الثورة في رأيه قد لا تنجح ، والتأكيد على نجاحها في رأيه هو الإيمان بالحتمية التاريخية (كما ورد في الفكر الماركسي) ، فسارتر يضحي بضرورة انتصار الثورة (أو الحتمية التاريخية) من أجل إبراز حرية الثوري المطلقة ، ويجعل بالتالي التضحية مقترنة بالفشل والسقوط.

-وإذا كان الثوري -مبدئيا -يشعر بالتشاؤم إتجاه الغاية ، فإنه في هذه الأحوال يتكاسل ولا يوفر أقصى جهد لذلك وهكذا تصبح فلسفة الثورة فلسفة عقيمة وتشاؤمية.نستطيع القول - أيضا -إن فلسفة الثورة السارترية لها جوانبها السلبية ، وذلك لأن الإنسان أو الثوري ، معرّض للأخطار طالما هو الذي يخترع هذه الفلسفة ، فهو مسئول عن هذا الإختراع بما فيه من أخطار يتعرض لها ، ومن فشل يصيبه.

-وفي الختام نقول أن سارتر كان وفيا لفلسفة الثورة ؛ لأنه كان يلتزم بما يقوله في كتبه ومقالاته كل الالتزام ، فكانت أفكاره متطابقة مع سلوكاته ، ومع واقعه المعاش ، فكان سارتر من الفلاسفة الذين يقولون ثم يفعلون ، فلم يكن مثاليا ، وكان همه الوحيد يتمثل في تغيير الأوضاع التي كانت فرنسا تعيشها آنذاك ، فتألم لكثير من مشاهد البؤس والحرمان ، التي كانت تظهر على وجوه الفقراء والمحرومين ، ومن هنا كانت دعوته إلى قلب النظام لتسود العدالة الإجتماعية.

المراجـع والمصـادر

(1) على عباس مراد الطبقات والصراع الطبقي في الأيديولوجية العربية الثورية . العراق. ط منشورات وزارة الثقافة والأعلام 1984. ص 49.
(2) أفلاطون. الجمهورية. حنا خباز. بيروت. ص ص 210-213.
(3)أفلاطون. الجمهورية. المرجع السابق. ص ص 173.

(4)علي عباس مراد. الطبقات والصراع الطبقي في الأيديولوجية العربية الثورية. المرجع السابق. ص 15.
(5) أرسطو. السياسة. ترجمة أحمد لطفي السيد. القاهرة. ط دار الكتب المصرية. 1947. ص 253.
(6)الفارابي أبو نصر. آراء أهل المدينة الفاضلة. بيروت المطبعة الكاثوليكية .ط1 1959. ص 49.
(7)ساطع الحصري. دراسات عن مقدمة ابن خلدون. بيروت. ط دار الكتاب العربي 1967.ص ص 542-534.
(8) - Jeannette colombel. J.-P. Sartre (un homme en situations) T 1 (textes et debats). Paris Bibliotheque Essais, 1986. p 199.
(9) سارتر. المادية والثورة. المصدر السابق. ص 9.
(10)سارتر. المادية والثورة. المصدر نفسه. ص 31.
(11) - J. P. Sartre. Situations V. « une victoire » Paris ed gallimard blanche 1983. pp 72-77. (Paru dans l'express, 6 Mars 1958).
(12) - J. P. Sartre. L'être et le Néant. Paris ed gallimard blanche, 1958. p 510.
(13)سارتر. المادية والثورة. ص ص 9 – 10.
(14)المصدر السابق. ص 10.
(15) - Sartre. on a raison de se revol'er. Paris ed gallimard blanche 1973. pp 138-139.
(16)سارتر. المادية والثورة. ص 18.
(17) - Sartre. critique de la raison dielectique. p 126.
(18) - Jeannette colombel. « J. P. Sartre » un homme én situations T 2 . p 560.
(19)سارتر. المادية والثورة. ص 21.
(20)المصدر نفسه. ص 21.
(21) - Sartre. Situations II, qu'est-ce que la litterature?. ed gallimar.d 1948. pp 285-287
(22) سارتر. المادية والثورة. ص 26.
(23)المصدر نفسه. ص 26.
(24)المصدر نفسه. ص ص 26-28.
(25)المصدر نفسه. ص 29.
(26) المصدر نفسه. ص ص 31-32.
(27) المصدر نفسه. ص 30.
(28)سارتر. المادية والثورة. ص 30.
(29) - Sartre. Situations III La republique du silence. Paris ed gallimard blanche 1949. pp 11-13.
(-سارتر. المادية والثورة. ص 24.
(31) - Situations V. Le colonialisme est un systhème,. ed Gallimark, 1964 p 38.
(32)سارتر. المادية والثورة. المصدر السابق. ص 33.

معهد العلوم الإجتماعية جامعة قسنطينة *